

بلغت الحجة وانقطع العذر

د.ماجد كارم

الحمد للّه الذي يقذف بالحق علي الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ،وأوضح من الحُجج والبراهين ماقامت به حُجته علي جميع المكلفين من الخلائق، أحمده سبحانه وأستعين به علي قمع كل منافق ومشرك مارق ، وأشكره علي مامّن به من إدحاض الباطل وأهله من كل معاند للحق ومشاقق ، وأشهد أن لاإله إلااللّه وحده لاشريك له شهادة مخلص للّه صادق،وأشهد أن محمدآ عبده ورسوله المبعوث باهدي السنن وأقوم الطرائق ، صلى اللّه عليه وعلي آله واصحابه ذوي المناقب والسوابق ، وسلم تسليمآ كثيرآ . أمَّا بعد...

فتلك رسالة مبسطة تحت عنوان بلغت الحجة وانقطع العذر ، فأسأل اللّه تعالى أن يجعله عملاً مقبولاً ، وسعيا مشكورا ، وجهدا في سبيله ميمونا. وقد قال الرسول الكريم (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) فهذا جهد العبد الفقير أتقرب به إلى اللّه تعالى ، وقد علم ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس؛ لكنه رب المستضعفين. ماذا فقد من وجده ، وماذا وجد من فقد عونه وتوفيقه وتأييده. فاللّه أسأل منه العون والمدد ، وأرجوه التوفيق والسداد والرشاد ، وأدعوه أن يبارك فيه ويجعله منارة هدى على طريق الدعوة ، ويتقبل ما فيه من إحسان ، ويتجاوز عما فيه من هفوات أو زلات؛ فلا معصوم إلا رسوله الكريم ، ولا عاصم إلا اللّه. ولذا فما في هذا العمل من خير فمن اللّه ، وما فيه من سوء فمن نفسي ومن الشيطان. وأنا استغفر اللّه العظيم من كل ذنب و سوء ، والعاقبة للمتقين والحمد للّه رب العالمين.

فياأيها القارئ الكريم لك غنم مافي رسالتنا وعلينا الغرم ولك ثمرتها وعلينا تبعتها فما وجدت فيها من صواب وحق فاقبله ولاتلتفت الي قائله بل انظر الي ماقال لا الي من قال واعلم ان اللّه تعالي قد ذم من يرد الحق اذا جاء به من يبغضه ويقبله اذا قاله من يحبه وقد قال بعض الصحابة (اقبل الحق ممن قاله وان كان بغيضا . ورد الباطل علي من قاله وان كان حبيبا) فان وجدت من خطأ فان قائله لم يأل جهد الاصابة ويأبي اللّه الا ان يتفرد بالكمال(والنقص في أصل الطبيعة كامن. وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوما جهولا . ولكن من عدت غلطاته أقرب الي الصواب ممن عدت اصابته)

بلغت الحُجـه وَانقطـع العــذر

حـجـج اللّه على خلقـــه

الأدلة الكونية أوالعقلية : فمن تأمل في كون اللّه عز وجل وإلى السماء والأرض والجبال..كلها آيات واضحة على ربوبية اللّه عز وجل ووحدانيته الذي خلق الكون ودبره وصور الخلق ورزقه هو وحده الذي يجب أن يعبد وقد وبخ اللّه سبحانه وتعالى في أكثر من آية في القران أهل الشرك ودعاهم إلى استخدام عقولهم كما قال اللّه تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) وقال اللّه تعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) وقال تعالى (.ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

- **الميثــاق**:

وهي قوله سبحانه وتعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

وهذه الآية ميثاق أخذه سبحانه وتعالى على بني ادم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم فأخذ علينا الميثاق بان لا نشرك به شيئا.

قال الطبري " يقول تعالى ذكره (شَهِدْنَا عليكم أيها المقرون بأن اللّه ربكم كي لا تقولوا يوم القيامة : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

إنا كنا لا نعلم ذلك وكنا في غفلة منه

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

لك اتبعنا مناهجهم على جهل منا بالحق وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ " اهـ..التفسير

وقال البغوي : "فان قيل كيف تلزم الحجة على أحد لا يذكر الميثاق ؟

قيل :

- قد أوضح اللّٰه الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ، وبنسيانهم عدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة.

قوله تعالى "أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ"

يقول :

- إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم

أي كنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم . فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا : أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ

أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين ؟

فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير اللّٰه - تعالى- بأخذ الميثاق على التوحيد "وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ " أي نبين الآيات ليتدبرها العباد وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" من الكفر إلى التوحيد .التفسير

يقول ابن القيم

في تعليقه على آية الميثاق:

وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك لا يحتاجون في ذلك إلى رسول. مدارج السالكين .

-الفطـــــرة

التي فطرنا اللّٰه عليها على وحدانيته

يقول اللّٰه (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

قال صلى اللّٰه عليه وسلم (يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه)

وفي الحديث القدسي" إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم)

فالعقل والميثاق والفطرة هي كلها حجج على بني ادم لكي يوحدوا اللّه تعالى ولا يشركون به شيئا،وفي قصة زيد بن عمر بن نفيل عبرة فقد حقق التوحيد دون أن يأتي له رسول خاص بزمانه وذلك قبل بعثة النبي صلى اللّه عليه وسلم فقد كان من القوم الذي قال اللّه تعالى فيهم (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) ومع ذلك فقد اهتدى زيد إلى التوحيد بفطرته وعقله فكان يبرأ من طواغيت قومه ويتجنب عبادتها ونصرتها وقد رآه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عند الكعبة وقد قدمت له سفرة مذبوحة على نصبهم فأبى أن يأكلها وقال يا معشر قريش الشاة يخلقها اللّه وينزل لها المطر من السماء وينبت لها الكلأ من الأرض ثم انتم تذبحونها لغيره..

وفي حديث عمرو بن عبسة قال (كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان)رواه مسلم.

فانظر كيف أن هذا الرجل أدرك التوحيد بفطرته وتبرأ من المشركين ومن عبادتهم، وقد سُئل عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده" فهو قد نجا بتحقيقه للتوحيد وعذر بتفاصيل الشريعة والعبادات التي لا تعرف إلا عن طريق الحجة الرسالية كالصلاة والصيام..وغير ذلك ، فهذا لا يدركه الإنسان إلا عن طريق الحجة الرسالية فقد ورد انه كان يقول يارب لو اعرف طريقة ترضيك أعبدك بها لفعلت.

إرسال الرسل:

وإضافة إلى دليل العقل وآية الميثاق والفطرة أرسل اللّه سبحانه وتعالى الرسل من أجل هذه الغاية العظيمة(ولقد بعثنا في كل امة رسولا أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت) (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)فمن لم تصله رسالة ذلك النبي سمع بغيره ، إذ جميعهم وان تنوعت شرائعهم إلا أن دعوتهم إلى تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك وأهله.

إنزال الكتب:

أنزل اللّه سبحانه وتعالى مع الرسل الكتب تدعوا إلى توحيد اللّه عز وجل فكان خاتم الرسل محمد صلى اللّه عليه وسلم قد بعث بالقران العظيم الذي تكفل اللّه بحفظه من التحريف إلى يوم الدين ومن تدبر آيات اللّه سبحانه وتعالى وجد أن اللّه عز وجل في كثير من الآيات نسب الشرك إلى مرتكبه سواء عن جهل أو عناد وسواء قبل الرسالة أو بعدها ، فان اسم الشرك ثابت لمن تلبس به وفعله . بعض الأدلة من القران

قال اللّه تعالى (ما كان للنبي والذين امنوا أن يستغفروا للمشركين)

وقال اللّه تعالى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم)

وقال اللّه (وإن احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللّه)

فسماه مشركا قبل سماع الحجة.

قال الطبري " يقول - تعالى ذكره - لنبيه :وان استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام اللّه منك ، وهو القرآن الذي أنزله اللّه عليك فَأَجِرْهُ يقول :

- فأمّنه حتى يسمع كلام اللّه وتتلوه عليه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ يقول :

- ثم رده بعد سماع كلام اللّه إن هو أبى أن يسلم ولم يتعظ بما تتلوه عليه من كلام اللّه فيؤمن ، إلى مأمنه ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

يقول :- تفعل ذلك بهم من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن ، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم من أجل انهم قوم جهلة لا يفقهون عن اللّه حجة ولا يعلمون ما لهم بالإيمان باللّه لو آمنوا ، وما عليهم من الوزر والإثم لتركهم الإيمان باللّه

وقال البغوي:

فيما له وعليه من الثواب والعقاب حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

أي : لا يعلمون دين اللّه وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام اللّه .

وقال الحسن : هذه الآية محكمة إلى قيام الساعة

وقال الله تعالى(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) ومعنى منفكين أي زائلين عن الشرك

فقد تلبس بهم اسم الشرك قبل البينة ثم عرف الله تعالى البينة بقوله رسولا من الله يتلو صحفا مطهرة
فمن بلغه هذا القران فقد قامت عليه النذارة والحجة
ويقول الله تعالى(فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)
وقال الله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل)
وقال الله تعالى عن مشركي العرب
(فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد أبائهم من قبل)
فسمى أبائهم عابدين لغير الله قبل قيام الحجة عليهم.
وقال تعالى عن هدهد سليمان عليه السلام حينما وجد امرأة تحكم قوما يعبدون الشمس كما قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله)
وقال عن حكمها(وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين)

فلحقها اسم الكفر قبل قيام الحجة أي قبل أن تصلها دعوة سليمان عليه السلام وقد أسلمت مع سليمان لما دعاها إلى الإسلام .وكل هؤلاء المذكورين كانوا في فترة فلم يعذرهم الله سبحانه وتعالى وسماهم مشركين.

ومن الأدلة أيضا الحديث المذكور عن انس
(أن رجلا قال يا رسول الله أين أبي؟ قال في النار فلما قفي دعاه فقال إن أبي وأباك في النار)رواه مسلم(١: ١٣٢-١٣٣) وأبو داود(٤٧١٨) وأحمد(٣: ٢٦٨) وأبو يعلى(٣٥١٦) وابن حبان(٥٧٨- الإحسان.
مع أنهم من القوم الذين قال فيهم الله تعالى(لتنذر قوما ما أُنذِر آباؤهم فهم غافلون)فرغم أن والد الرسول صلى الله عليه وسلم ووالد الرجل كانوا في فترة والفترة معناها كثرة الجهل وقلة العلم ورغم انه لم يكن لا رسول ولا قران فانه لم يعذر منهم احد.

ومن الأدلة أيضا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال استأذنت ربي لاستغفر لامي فلم يأذن لي واستأذنت أن ازور قبرها فأذن لي لان الله نهانا عن كثير من الأحكام بخصوص المشركين :

- **عدم الاستغفار لهم يقول الله تعالى (ما كان للنبي والذين امنوا أن يستغفروا للمشركين).**
- **عدم نكاحهم يقول تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن)**

فيتبين من هذا كله أن من فعل الشرك فهو مشرك قبل الرسالة وبعدها فالجهل ليس عذرا أو مانعا من إطلاق اسم الشرك على من فعله فهو مشرك قبل الرسالة وبعدها، فالجهل ليس عذرا أو مانعا من إطلاق اسم الشرك على من تلبس به وسبب هذا الأمر هو الخلط بين الأسماء والأحكام في القران فمعنى أسماء الدين هي"مسلم مؤمن، مشرك، ظالم، سارق...إلى غير ذلك ومعنى أحكام الدين"هي الموالاة، المحبة، البغض، القتل...إلى غير ذلك من أحكام الدين.

فاغلب من لهم هذه الشبهة لم يفرقوا بين الأسماء والأحكام ودليل ذلك استدلالهم بقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)
فنفوا اسم الشرك على من تلبس به وحجتهم الآية وقالوا انه من فعل الشرك لا يكفر إلا بعد قيام الحجة فلم يفرقوا بين الاسم والحكم فالله سبحانه وتعالى نفى في الآية الحكم أي التعذيب فقال
(وما كنا معذبين)
ولم ينفي الاسم ولو كان ذلك لقال
(وما كنا مكفرين)
فتأمل هذا يرحمك الله فالله سبحانه وتعالى لا يعذب امة إلا بعد قيام الحجة كما قال تعالى (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وقال تعالى (إنا أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى).والمشكل المطروح أيضا هو المفهوم الخاطئ لبلوغ الحجة

يقول ابن تيمية (أن القران حجة على من بلغه..فكل من بلغه القران من انسي وجني فقد انذره الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم)الفتاوى١٦.

وقال على قوله تعالى (لاتسمعوا لهذا القران والغوا فيه)

(والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر لا بنفس الاستماع ففي الكفار من تجنب سماع القران واختار غيره)الفتاوى ١٦.

وقال(حجة اللّٰه برسله قامت بالتمكن من العلم فليس من شرط حجة اللّٰه علم المدعوين بها ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القران وتدبره مانع من قيام حجة اللّٰه عليهم) كتاب الرد على المنطقتين ص١١٣ في المقام الثالث.

وقال أيضا (ليس من شرط تبليغ الرسالة أن يصل إلى كل مكلف في العالم بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه)الفتاوى ٢٨.

(فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) فإذا تواجد موحد في مكان فقد قامت عليهم الحجة وهذا ما يفسر قوله صلى اللّٰه عليه وسلم للرجل الذي سأله عن أبيه فقال صلى اللّٰه عليه وسلم أبي وأباك في النار

فقد كان بين القوم موحدين كزيد بن عمروا بن نُفيل وورقة فقد قامت الحجة على قومه بتواجد الحنفاء بينهم لذلك هم كفار في الدنيا وفي الآخرة في النار كما في الحديث (ما أتيت عليه من قبر قرشي أو عامري مشرك فقل أرسلني إليك محمد فابشر بما يسوؤك تجر على وجهك وبطنك في النار)رواه عبد اللّٰه بن احمد.

فانظر كيف عين رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من عامر وقريش لأنه كان حنفاء قامت بهم الحجة فاستحقوا العقاب في الآخرة.

فالقران والأحاديث لا تضرب بعضها البعض، ومن الغريب أيضا التفرقة بين امة محمد صلى الله عليه وسلم والنصارى وعذر امة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم عذر النصارى أو اليهود..
فإذا سالت واحد عن نصراني جاهل للإسلام وقلت له ما حكمه لا يتردد ويجيب بسرعة كافر
وإذا سألته عن واحد يشرك مع الله بدعاء ولي أو غيره وقلت له ما حكمه يقول هو مسلم جاهل؟؟؟

سبحان الله(أفلا تعقلون)

كيف نعذر رجلا يتكلم بلغة القران ولا نعذر رجلا أعجمي لا يفهم من لغة القران شيء؟كيف نعذر من عنده القران ولا نعذر من ليس عنده؟؟..
ولكن كل هذا لسبب واحد أن الناس جهال لحقيقة الإسلام
وان دعوة محمد صلى الله عليه وسلم للناس عامة ودعوته للعرب والنصارى وغيرهم فالأمة انقسمت إلى قسمين امة إجابة وهي التي أجابت الدعوة ودخلت إلى الإسلام ، ودعوة. فالله سبحانه وتعالى لم يعذر النصارى رغم جهلهم سماهم ضالين لأنهم ضلوا الطريق عن جهل لا عن علم ولم يعذروا بالجهل.ومن هذا يتبين أن من تلبس بالشرك فهو مشرك قبل قيام الحجة.

....

بَلَغتِ الحُجــة وَانقطـع العــذر

حجـــة_الميثـــاق

قال الله تعالى(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.) [الأعراف ١٧٢ – ١٧٤]

وهذه الآية من أعظم دلائل القرآن المجيد وأجلها ، وذلك أنها أحكمت بيان القضية ثم فصلته في ذات الوقت ، فبينت إقامة الحجة بالأشهاد وأخذ الميثاق على التوحيد ، ثم فصلت انقطاع العذر بهذه الحجة ، سواء بالجهل أو التقليد في قوله تعالى : أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . – أي جاهلين .

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ –

أي كانوا مقلدين – وحاصل الحالتين الجهل وعدم العلم ، فأثبتت الآية ثبوت الحجة وقيامها على بني آدم بهذا الأشهاد ، وانقطاع العذر بها كذلك .
ومن ثم علمنا أن كل بني آدم يولدون على هذه الفطرة وهذا الميثاق وهذا الدين ، فإذا ما بدلوه ونقضوه علمنا شركهم يقينا دونما التفاتٍ إلى جهل أو تقليد أو عناد وغير ذلك ، وبهذا التفصيل والبيان قال سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : " كل مولود على الفطرة ـ وفي رواية على هذه الملة ـ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كالبهيمة تنتج بهيمة كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ [متفق عليه] .
فصح شركهم وإثبات هذا الحكم عليهم مع أنهم مقلدون لا يفقهون ولا يقدرون ولا يعلمون .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

"يخبر – تعالى- أنه أستخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن اللّه ربهم ومليكهم ، وأنه لا اله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه... ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : – إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد... (وأخذ يدلل على رجحان هذا القول). قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا (أي الإشهاد) هو فطرهم على التوحيد أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا (أي الإشهاد الحقيقي والخروج من صلب آدم حقيقة لأخذ العهد والميثاق) كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فان قيل :- إخبار الرسول به كاف في وجوده ، فالجواب:- إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا وغيره ، وهذا (أي العهد والميثاق)جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه: الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال أَنْ تَقُولُوا أي لئلا تقولوا يوم القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا . أي التوحيد .غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا "

قال الطبري :-

" يقول تعالى ذكره شَهِدْنَا عليكم أيها المقرون بأن اللّه ربكم كي لا تقولوا يوم القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ : إنا كنا لا نعلم ذلك وكنا في غفلة منه أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ اتبعنا مناهجهم على جهل منا بالحق ." اهـ

قال القرطبي :"- قال الطرطوشي : – إن هذا العهد يلزم البشر وان كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يلزم الطلاق من شهد عليه به وقد نسيه... وقال ابن عباس وأبي بن كعب : – قوله شهدنا هو من قول بني آدم ، والمعنى شهدنا أنك ربنا وإلهنا....أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ بمعنى لست تفعل هذا ، ولا عذر للمقلد بالتوحيد . اهـ

وقال الشوكاني :-

" ... أي :- فعلنا ذلك .كراهة أن تعتذروا بالغفلة أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم ، أولمنع الخلو دون الجمع ، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين مِنْ قَبْلُ أي من قبل زماننا وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب ،أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا ؛ بين اللّه – سبحانه- في هذه ، الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ، ويعتلّوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة." اهـ

وقال البغوي :-

"…. فان قيل كيف تلزم الحجة على أحد لا يذكر الميثاق ؟ قيل :- قد أوضح اللّه الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا ، فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجة ، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة . قوله تعالى أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ يقول :- إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم ، أي كنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم . فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا :- أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين ؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير اللّه – تعالى- بأخذ الميثاق على التوحيد .وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ أي نبين الآيات ليتدبرها العباد . وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . من الكفر إلى التوحيد . " اهـ

وقال ابن القيم:

وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ وهذا يقتضي إقرارهم بربوبيته إقراراً تقوم عليهم به الحجة ، وهذا إنما هو الإقرار الذي احتج به عليهم على ألسنة رسله ، كقوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ (إبراهيم : ١٠) ... وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (لقمان : ٢٥) ، قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ (المؤمنون : ٨٤-٨٥). ونظائر ذلك كثيرة ، يحتج عليهم بما فطروا عليه من الإقرار بربهم وفاطرهم ويدعوهم بهذا الإقرار إلى عبادته وحده وألا يشركوا به شيئاً ، هذه طريقة القرآن ، ومن ذلك هذه الآية التي في (الأعراف) وهي قوله (وإذ أخذ ربك ...) ولهذا قال في آخرها (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ...) فاحتج عليهم بما أقروا به من ربوبيته على بطلان شركهم وعبادة غيره ، وألا يعتذروا إما بالغفلة عن الحق وإما بالتقليد في الباطل ، فان الضلال له سببان : - إما غفلة عن الحق وإما تقليد أهل الضلال ."

وقال في (ص ٥٦٢) فهو سبحانه يقول :- أذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن اللّٰه ربهم ، فهذا الإقرار حجة عليهم يوم القيامة... (أن تقولوا) أي : كراهية أن تقولوا أو لئلا تقولوا (إنا كنا عن هذا غافلين) أي : عن هذا الإقرار للّٰه بالربوبية ، وعلى نفوسنا بالعبودية (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر سبحانه لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد :- إحداهما أن يقولوا :- إنا كنا عن هذا غافلين ، فبين أن هذا علم فطري ضروري لا بد لكل بشر من معرفته ، وذلك يتضمن حجة اللّٰه في إبطال التعطيل وأن القول بإثبات الصانع علم فطري ضروري وهو حجة على نفي التعطيل .

والثاني : - أن يقولوا :- (إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) وهم آباؤنا المشركون : أي أفتعاقبنا بذنوب غيرنا ؟ فانه لو قدر أنهم لم يكونوا عارفين بأن اللّٰه ربهم ووجدوا آباءهم مشركين وهم ذرية من بعدهم ، ومقتضى الطبيعة العادية أن يحتذي الرجل حذو

أبيه حتى في الصناعات والمساكن والملابس والمطاعم إذ كان هو الذي رباه ، ولهذا كان أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، فإذا كان هذا مقتضى العادة والطبيعة ، ولم يكن في فِطَرهم وعقولهم ما يناقض ذلك ، قالوا : نحن معذورون وآباؤنا الذين أشركوا ، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم ، ولم يكن عندنا ما يبين خطأهم . فإذا كان في فطرهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم ، كان معهم ما يبين به بطلان هذا الشرك ، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم . فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية الفعلية السابقة لهذه العادة الطارئة ، وكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجون بها ، وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك لا يحتاج ذلك إلى رسول ، فانه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا . وهذا لا يناقض قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فان الرسول يدعو إلى التوحيد ، ولكن الفطرة دليل عقلي يعلم به إثبات الصانع (بياض في الأصل، والسياق يقتضي وضع (وإلا) لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم فهذه الشهادة على أنفسهم التي تتضمن بأن الله ربهم ، ومعرفتهم أمر لازم لكل بني آدم ، به تقوم حجة الله في تصديق رسله ، فلا يمكن لأحد أن يقول يوم القيامة : إني كنت عن هذا غافلا ولا أن الذنب كان لأبي المشرك دوني لأنه عارف بأن الله ربه لا شريك له ، فلم يكن معذوراً في التعطيل والإشراك ، بل قام به ما يستحق به العذاب . ثم إن الله لكمال رحمته وإحسانه – لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسول إليه ، وان كان فاعلا لما يستحق به الذم والعقاب ، فلله على عبده حجتان قد أعدهما عليه لا يعذبه إلا بعد قيامهما :- إحداهما :-ما فطره وخلقه عليه من الإقرار بأنه ربه ومليكه وفاطره ، وحقه عليه لازم. والثاني :- إرسال رسله إليه بتفصيل ذلك وتقريره وتكميله ، فيقوم عليه شاهد الفطرة والشرعة ويقر على نفسه بأنه كان كافرا.كما قال (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)(الأنعام :١٣٠).فلم ينفذ عليه الحكم إلا بعد إقرار وشاهدين،وهذا غاية العدل."(أحكام أهل الذمة ج٢ ص٥٢٣ – ٥٥٧)

وقال ابن تيمية :

" الحمد للّه،أما قوله :(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) فالصواب أنها فطرة اللّه التي فطر الناس عليها،وهي فطرة الإسلام،وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال:(ألست بربكم قالوا بلى (وهي:- السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة. فان حقيقة (الإسلام):- أن يستسلم للّه لا لغيره،وهو معنى لا اله إلا اللّه.وقد ضرب رسول اللّه مثلا لذلك فقال:(كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟) بين أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن ، وأن العيب حادث طارئ . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : - قال رسول اللّه فيما يرويه عن اللّه) إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا) (إلى أن قال) ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ،فان اللّه أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا،ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلما.وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع :- هي فطرة اللّه التي فطر الناس عليها ." اهـ (مجموع الفتاوى ج٤ ص ٢٤٥)

أقول :ونحن نعلم يقينا أن شرك جماهير اليهود والنصارى والمجوس إنما هو شرك جهل وتقليد ، ولم يعذروا بذلك ، وإنما أثبت حكم الشرك لهم ، ولأن غير ذلك معناه إثبات حكم الإسلام والتوحيد لا محالة ،وهذا باطل جملة ومن حيث الأصل.

فصح أن من خرج من التوحيد وتلبس بالشرك ، قد خرج من الدين الحق إلى دين الشرك ، جهل أو علم ، عاند أو لم يعاند ، قلد أو تابع .

قال صلى اللّه عليه وسلم : » يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أ كنت تفتدي به ؟ قال ؛ فيقول ؛ نعم ، فيقول له المولى : " قد أردت منك ما هو أهون من هذا ، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي «. رواه مسلم

بَلَغت الحُجـه وَانقطـع العـذر

قال الله تعالي﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾النساء : ١٦٥.

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (رُسُلاً مبشرين ومنذرين) أي يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب .

وقوله (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذرعذر كما قال ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾وكذا قوله ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ الآية. اهـ

قال الله تعالي﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأنعام : ١٤٩.

يقول القرطبي في تفسير الآية العظيمة (قوله تعالى : " قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ " أي التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عمن نظر فيها . فحجته البالغة على هذا تبيينه أنه الواحد وإرساله الرسل والأنبياء فبيَّن التوحيد بالنظر في المخلوقات وأيد الرسل بالمعجزات وألزم أمره كل مكلف . فأما علمه / وإرادته / وكلامه فغيب لا يطلع عليه العبد إلا من ارتضى من رسول .ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمره به لأمكنه) أ . هـ

قال ابن كثير

في تفسير الآية : (قال الضحَّاك : لا حجة لأحد عصى اللّه ولكن للّه الحجة البالغة على عباده) أ. هـ

" **ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** "

وكونهم " لايعلمون" لايجعلهم على دين اللّه القيم . فالذي لايعلم شيئاً لايملك الإعتقاد فيه ولا تحقيقه ..فإذا وجد ناس لايعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلا وواقعاً وصفهم بأنهم على هذا الدين ! ولم يكن جهلهم عذراً لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة إبتداء ، فإعتقاد شيء فرع عن العلم به ..وهذا منطق العقل والواقع .. بل منطق البداهة الواضح .

وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين!
إن الاعتقاد بحقيقه فرع عن معرفتها . فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها؟

فالذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين . لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية . والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلا وواقعا أن يكون معتقدا به . إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة . . وهذه بديهية

بلَغت الحُجـه وَانقطـع العــذر

قال اللّه تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

قال القرطبي :

(سنريهم آياتنا في الآفاق)أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا (في الآفاق)يعنى خراب منازل الأمم الخالية (وفي أنفسهم)بالبلايا والأمراض وقال ابن زيد: (في الآفاق) آيات السماء(وفي أنفسهم) حوادث الأرض وقال عطاء وابن زيد أيضا(في الآفاق)يعنى أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرهما.

(في أنفسهم) من لطيف صنعه وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين وبديع صنعة اللّه وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام .وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة اللّه فيه .

(حتى يتبين لهم انه الحق) فيه أربعة أوجه :

أحدهما : أنه القرآن

والثاني :الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه

والثالث :أن ما يريهم اللّه ويفعل من ذلك هو الحق

والرابع : أن محمدا صلى اللّه عليه وسلم هو الرسول الحق .

(أو لم يكف بربك ......)

والمعنى أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده لأنه (على كل شئ شهيد)وإذا شهده جاز عليه) أ.هـ .

والآيات البينات في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ولكن قد يقول قائل – والله أعلم بالسرائر –:

أن هذه الآيات شاهدة على توحيد الربوبية فقط ولا تتطرق إلى توحيد الإلهية ذلك أن المولى عز وجل يدل الخلق من خلالها على كمال قدرته وعظمته وبأنه الصانع الخالق الرازق .

فيقال لمن حدثته نفسه بمثل ذلك إنك لم توافق الصواب بل تجنيت على الآيات وأوجه دلالتها وتحدثت في الله بغير علم بل وتجنيت على المشركين الأوائل والذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوا عليهم آيات الله ويدعوهم إلى التوحيد ولا يشركوا بالله شيئا.

ذلك إن هؤلاء المشركين لم ينازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ربوبية الله ولم يجحدوها حتى يقال ذلك في مدلول الآيات بل إن آيات الله عز وجل تشهد لهم بإثبـاتهم الربوبية له وحده سبحانه وإنهم لم يدّعوا أبدا إن هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله تخلق أو ترزق .

يقول الله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾

ويقول تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾

هذا من جانب ، ومن جانب آخر يقول تعالى ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ،الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾

قال ابن كثير (الخالق لهذه الأشياء هو المستحق العبادة .) أ.هـ

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلى النجدي :

(أي ومن كان هذا وصفه فهو المستحق أن تعبدوه وحده "لا تجعلوا له أندادا" أمثالا ونظراء بصرف شي من أنواع العبادة لهم وأنتم تعلمون أنها لا تماثله بوجه من الوجوه .أو كنتم تعلمون تفرده بإيجاد المخلوقات وإنزال المطر ،وجعل الأرض فراشا والسماء بناء وأنه لا يرزقكم غيره . يحتج تعالى عليهم بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية .فإنه تعالى كثيرا ما يقرن في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الإلهية) أ.هـ حاشية ثلاثة الأصول . طبعة دار أم البنين ص ٢٨.

قال الله ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ﴾الشورى : ١٥ .

يقول القرطبي :

(قال : نُسخت بقوله "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر " التوبة : ٢٩ .

قال مجاهد :

ومعنى (لا حجة بيننا وبينكم) لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل ليس بمنسوخ لأن البراهين قد ظهرت والحجج قد قامت فلم يبق إلا العناد ، وبعد العناد لا حجة ولا جدال) أ هـ .

بَلَغت الحُجــه وَانقطــع العـــذر

يقول اللّه تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبه ،ولهذا قال (وأنزلنا إليكم نورا مبيناً) أي ضياء واضحا على الحق ،قال ابن جرير وغيره هو القرآن)أ.هـ

قال القرطبي : (.. قال مجاهد : البرهان هاهنا الحجة)أ.هـ

٢- ويقول اللّه تعالى ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُو الْأَلْبَابِ﴾

قال ابن كثير في تفسيرها (يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله (لأنذركم به ومن بلغ) أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة (الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) الآية (ولينذروا به) أي ليتعظوا به (وليعلموا إنما هو إله واحد) أي ليستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو(وليذكر أولوا الألباب) أي ذوى العقول) أ. هـ

قال القرطبي (وليعلموا أنما هو إله واحد) أي وليعلموا وحدانية اللّه بما أقام من الحجج والبراهين . (وليذكر أولوا الألباب) أي وليتعظ أصحاب العقول وهذه اللامات في (ولينذروا) ، (وليعلموا) ، (وليذكر) متعلقة بمحذوف التقدير : وليذلك أنزلناه .وروى يمان بن رئاب أن هذه الآية نزلت في أبى بكر الصديق رضي اللّه عنه وسئل بعضهم هل لكتاب اللّه عنوان ؟ فقال : نعم ، قيل : أين هو ؟ قال قوله تعالى : (هذا بلاغ للناس ولينذروا به) إلى آخرها)أهـ

قال البغوى (وقال جل ذكره : " هذا بلاغ للناس " يعنى هذا القرآن ذو بلاغ ، أي ذو بيان كاف، والبلاغة هي البيان الكافي)

٣-يقول اللّه تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية العظيمة (قوله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن)أي والقرآن شاهد بنبوتي (لأنذركم به) يا أهل مكة (ومن بلغ) أي ومن بلغه القرآن فحذف الهاء لطول الكلام . وقيل ومن بلغ الحلم ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد . وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما كما أمر النبي صل اللّه عليه وسلم بتبليغهما فقال : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)

وفي صحيح البخاري عن عبد اللّه بن عمرو عن النبي : (بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).وفي الخبر أيضا من بلغته آية من كتاب اللّه فقد بلغه آمر اللّه أخذ به أو تركه . وقال مقاتل : من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له .
وقال القرظى : من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً صلى اللّه عليه وسلم وسمع منه) أ.هـ

قال ابن كثير وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي هو نذير لكل من بلغه كقوله تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب في قوله (ومن بلغ) من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى اللّه عليه وسلم زاد أبو خالد وكلمه .ورواه ابن جرير من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب قال : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى اللّه عليه وسلم . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : (لأنذركم به ومن بلغ) أن رسول اللّه صل اللّه عليه وسلم قال (بلغوا عن اللّه فمن بلغته آية من كتاب اللّه فقد بلغه أمر اللّه) أ.هـ

بَلَغت الحُجــه وَانقطــع العـــذر

يقول اللّه تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾

قال ابن كثير (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال (لعلهم يتذكرون) فأن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم) أي تعلمونه من أنفسكم وقال عز وجل : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقوله جل وعلا (قرآنا عربيا غير ذي عوج) أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان واضح وبرهان وإنما جعله اللّه تعالى بما فيه من الوعد . ثم قال (ضرب اللّه مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون) أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم (ورجلاً سلماً) أي سالما (لرجل) أي خالصا لا يملكه أحد غيره (هل يستويان مثلاً؟) أي لا يستوي هذا وهذا . كذلك لا يستوى المشرك الذي يعبد آلهة مع اللّه والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا اللّه وحده لا شريك له ، فأين هذا من هذا ؟قال ابن عباس رضى اللّه عنهما ومجاهد وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص . ولما كان هذا المثل ظاهرا بيناً جلياً قال (الحمد للّه) أي على إقامة الحجة عليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أي فلهذا يشركون باللّه) أ.هـ-ويقول اللّه تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ والأدلة على هذا المعنى كثيرة معلومة بالضرورة قاطعة الدلالة .

يقول الله تعالى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون للّه ،قل أفلا تتقون .قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون للّه قل فأنى تسحرون بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾ المؤمنون

يقول القرطبي (فأنى تسحرون) أي فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده .أو كيف يخيل إليكم أن تشركوا به مالا يضر ولا ينفع ! والسحر هو التخيل .وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع) أ.هـ .

يقول ابن كثير (وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر في جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه ،الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه ،الذي لا يمانع ولا يخالف ،وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقال اللّه (لا يسأل عم يفعل وهم يسألون) أي لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله ، فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم كما قال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقوله (سيقولون للّه) أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو اللّه تعالى وحده لا شريك له (قل فأنى تسحرون) أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى : (بل آتيناهم بالحق) وهو الإعلام بأنه لا إله إلا اللّه وأقمنا الأدلة الصحيحة ،الواضحة القاطعة على ذلك (وإنهم لكاذبون) أي في عبادتهم مع اللّه غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة (ومن يدع مع اللّه إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال اللّه عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون)أ.هـ

بَلَغت الحُجّه وَانقطع العـــذر

قال الله تعالى " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** " . التحريم ٧

قال القرطبي (" يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم " فإن عذركم لا ينفع . وهذا النهي لتحقيق اليأس . " إنما تجزون ما كنتم تعملون " في الدنيا . ونظيره " فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون " . الروم ٥٧ .) أ.هـ

قال ابن كثير (وقوله " يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون " أي : يقال للكفر يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .) أ.هـ

قلت / هذه هي القاعدة العامة " فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم " وهكذا تتقرر القواعد العامة في دين الله دائماً تتكرر فتتقرر ، والاستثناء من القواعد العامة لا يتقرر إلا بنص واضح بين الدلالة بصيغة الاستثناء كما هو الحال مع الأحكام الشرعية عموما.

لذا كان الإكراه استثناء . قال تعالى :

" إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان " .

والجهل أكثر وقوعا من الإكراه بل هو الأكثر شيوعا أيضا ، فلو كان عذرا لتقرر بنفس وضوح تقرير القواعد العامة – أو كما يتقرر الاستثناء من القواعد العامة ولكان مثلاً (إلا من جهل وقلبه مطمئن بالإيمان).وإلا فهل ينص على العذر الأقل وقوعاً والأقل شيوعاً بهذا الوضوح ، ثم يبهم الحكم بالنسبة للعذر الأكثر وقوعا والأكثر شيوعا ويترك للاجتهاد –خاصة القياس الفاسد – وبالتالي يكون الاختلاف

بَلَغت الحُجّه وَانقطع العُذر

قال الله تعالى "(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) " القيامة . ١٤- ١٥.

قال القرطبي (قال مقاتل : أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعة ذلك . نظيره قوله تعالى " يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم " . الأعراف ٥٢ وقوله : " ولا يؤذن لهم فيعتذرون " فالمعاذير على هذا مأخوذة من العذر .)

ويقول : (قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب.. والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار : " والله ربنا ما كنا مشركين " الأنعام . ٢٣ . وقوله تعالى في المنافقين " يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم " المجادلة . ١٨ . وفي الصحيح أنه يقول : (يارب آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع) . الحديث أ.هـ

قال ابن كثير (وقال مجاهد : " ولو ألقى معاذيره " ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتاده : " ولو ألقى معاذيرة " ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه وقال السدى " ولو ألقى معاذيره " حجته . وكذا قال ابن زيد والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير ، وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس " ولو ألقى معاذيره "يقول لو ألقى بهتانه ، وقال الضحاك : ولو ألقى ستوره وأهل اليمن يسمون الستر العذار ، والصحيح قول مجاهد وأصحابه كقوله تعالى : " ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين " وكقوله تعالى : " يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئ ألا إنهم هم الكاذبون" وقال العوفي عن ابن عباس : " ولو ألقى معاذيره" هي الاعتذار ، ألم تسمع أنه قال : " لا ينفع الظالمين معذرتهم " وقال : " وألقوا إلى الله يومئذ السلم ما كنا نعمل من سوء " وقولهم " والله ربنا ما كنا مشركين ".اهـ

- يقول الله تعالى " هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ " المرسلات ٣٥ – ٣٦ .

قال ابن كثير (" هذا يوم لا ينطقون " أي : لا يتكلمون " ولا يؤذن لهم فيعتذرون " أي : لا يقدرون على الكلام ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .) أ.هـ

قال القرطبي (" هذا يوم لا ينطقون " أي : لا يتكلمون " ولا يؤذن لهم فيعتذرون "..ولا يؤذن لهم في الاعتذار والتنصل) أ.هـ

وقال : (وقال الجنيد : أي عذر لمن اعرض عن منعمه وجحده وكفر أياديه ونعمه ؟!) أ.هـ

....

بَلَغت الحُجـه وَانقطـع العـذر

قال اللّه تعالي " **يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ** "

قال ابن كثير (" يوم لا ينفع الظالمين " وهم المشركين " معذرتهم " أي : لا يقبل منهم عذر ولا فدية .) أ . هـ

ذكر اللّه تعالى أن الظالمين لا يسمع لهم عذر يوم القيامة ولا يقبل منهم ، وإن كانوا سيقدمون الكثير من الأعذار ، منها الصادقة ومنها الكاذبة ، وقد أفاض القرآن الكريم بذكر أنواعاً من اعتذاراتهم ، منها أنهم سيقولون

" إنا كنا عن هذا غافلون " الأعراف ١٧٢.

وآخرون سيقولون :

" إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أتهلكنا بما فعل المبطلون " الأعراف ١٧٣.

ويعتذرون : " وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً " الأحزاب ٧٦.

بل منهم من تبلغ به الجرأة أن يقسم " واللّه ربنا ما كنا مشركين " الأنعام ٢٣.

ومنهم من يقول : " ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون "المؤمنون ١٠٧.

ومنهم من سيقول :" ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى " طه ١٣٤.

ويقول لهم : " أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى " طـه ١٣٣.

ومنهم من يقول : " ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون "الزخرف ٧٧ –٨٨

هذا هو الحال في الآخرة لذا يقول تعالى :
" فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً "الكهف ١١٠.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (قال ابن القيم رحمه اللّه تعالى في هذه الآية : أي : كما أن اللّه واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له ، فكما تفرد بالألوهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة .وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث اللّه به رسوله صلى اللّه عليه وسلم والمرسلين قبله هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، كما قال تعالى :
" وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون "

والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام :
إما طاغوت ينازع اللّه في ربوبيته وألوهيته ويدعو الناس إلى عبادته.
وإما طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان.
أو مشرك يدعو غير اللّه ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها .
أو شاك في التوحيد:أهو حق أم يجوز أن يجعل للّه شريك في عبادته ؟
أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى اللّه وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غربة الدين ونسي العلم بدين المرسلين .) أ.هـ

ويحذرك المولى تبارك وتعالى من آفتين تصيبان النفس البشرية فتهلكها :

الأولى :

الأماني الكاذبة وترك العمل الصالح. يقول تعالى :
" ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلي ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر اللّه وغركم باللّه الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير " الحديد ١٤ – ١٥.

الثانية :

طول الأمد المؤدي إلى قسوة القلب . يقول تعالى :
" ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون "الحديد ١٦.

ويذكر المولى تبارك وتعالى ، أن جميع الأعذار التي تتعلق بها النفوس العاتية والنفوس الغافلة ، والنفوس الفاجرة، مرفوضة ساقطة ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

من ذلك :

١- قوله تعالى :" فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون " الروم ٥٧.

قال ابن كثير (" فيومئذ " أي يوم القيامة " لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم " أي اعتذارهم عما فعلوا " ولا يستعتبون " أي ولا يرجعون إلى الدنيا كما قال تعالى : " وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ".) أ.هـ

٢- قوله تعالى " يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار " غافر ٥٢

قال ابن كثير " يوم لا ينفع الظالمين " وهم المشركين " معذرتهم " أي : لا يقبل منهم عذر ولا فدية .) أ . هـ

قال البغوي / (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) إن اعتذروا عن كفرهم لم يقبل منهم ، وإن تابوا لم ينفعهم ، (ولهم اللعنة) البعد من الرحمة ، (ولهم سوء الدار) يعني جهنم .

قال الطبري / وقوله: (يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ) يقول تعالى ذكره: ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل، وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب بأن يقولوا: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

....

الحُجّــة وصفة قيامها

ماهى اقامه الحجه؟ ومالفرق بينها وبين الاستتابه؟

وهل اقامه الحجه تعنى استيفاء الشروط وانتفاء الموانع؟

والجواب : المقصود بقيام الحجة هو بلوغ النص الشرعي من الكتاب أو السنة بوجوب عمل ما ، أو تحريم عمل ما للمكلف بلوغا حقيقيا أو بلوغا حكميا (أي الوجود في مكان يتمكن فيه المكلف من سماع الحجة) .

وهي تختلف باختلاف نوع المسألة التي نتكلم عليها فالحجة في أصل الدين والشرك غير الحجة في مسائل الشرائع الظاهرة غير الحجة في باب المسائل الخفية .

ومن أنواع اقامة الحجة استتابة المرتد ولكن الاستتابة ليست كما يظن البعض من أجل الحكم على من أتى بالردة بأنه مرتد ولكن تكون الاستتابة لمن حكمنا عليه بأنه مرتد لإنزال حد الردة عليه فهي بمثابة المراجعة والانذار الأخير للمرتد قبل قتله .

أما صور اقامة الحجة المختلفة بحسب طبيعة المسألة فهي:

١- في مسائل أصل الدين واتيان الشرك بالله فالحجة هي السماع بالرسول وبلوغ القرآن والسماع به وهذه الحجة تفيد في لزوم العذاب على الشرك الذي اقترفه العبد أما التسمية فهو مشرك بمجرد فعله للشرك سواء كان جاهلا أو متأولا أو مقلدا لأنه أتى بما يخرجه عن حد التوحيد ويدخله في حقيقة الشرك .

قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (الإجماع منعقد على أن من بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن فهو كافر ولا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة) الدرر١٠/٢٤٧

وقال الشيخ حمد بن ناصر (قد أجمع العلماء أن من بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحجة عليه قائمة) الدرر ١١/٧٢.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين : " والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل "

٢- أما الحجة في المسائل الظاهرة فهي أحد الطرق الآتية :

١- العلم حقيقة بالنص الشرعي
٢- البلاغ عن أي طريق من الطرق
٣- وجود دعوة قائمة
٤- الوجود في مكان به علماء أودعوه
٥- التمكن من الوصول للحجة

والدليل :
قال الله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)

وقال الله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة)، وقد فصلنا فيها القول سابقآ

قال ابن تيمية: إن القرآن حجة على من بلغه... فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم) الفتاوى ١٦/١٤٩

وقال: على قوله تعالى (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر لا بنفس الاستماع ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره،) الفتاوى ١٦/١٦٦

وقال (حجة اللّٰه برسله قامت بالتمكن من العلم فليس من شرط حجة اللّٰه علم المدعوين بها ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانع من قيام حجة اللّٰه عليهم) كتاب الرد على المنطقيين ص١١٣ في المقام الثالث

وقال أيضا: ليس من شرط تبليغ الرسالة أن يصل إلى كل مكلف في العالم بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه) (بتصرف) الفتاوى ٢٨/١٢٥).

ملاحظة ١ : حد المسائل الظاهرة هو ما قاله الإمام الشافعي رحمه اللّٰه (العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله مثل الصلوات الخمس وأن للّٰه على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت إذا استطاعوه وزكاة في أموالهم وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وأن يكفوا عنه ما حرم عليهم منه وهذا الصنف كله من العلم موجود نصا في كتاب اللّٰه موجودا عاما عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر والتأويل ولا يجوز فيه التنازع) الرسالة ص ٣٥٧،٣٥٩

ملاحظة٢ : يكفي لقيام الحجة مجرد بلوغها للمكلف ولا يشترط في أصل الدين والمسائل الظاهرة أن يفهمها الفهم الموجب للانتفاع بها واستيعابها استيعابا كاملا والإحاطة بها من جميع جوانبها .قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام)

وقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون)

وقال تعالى (وأُوحي إلى هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ) وقال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللّه).

قال الشيّخ محمد بن عبد الوهاب (مع أن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة اللّه مع قيامها عليهم كما قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) الآية . ثم ضرب أمثلة لأناس قامت عليهم الحجة لكن لم يفهموها مثل: الخوارج، والذين اعتقدوا في علي بن أبي طالب رضى اللّه عنه، وغلاة القدرية، (تاريخ نجد ص ٤١٠).

٣- الحجة في المسائل الخفية ، هو بلوغ الدليل الشرعي للمكلف وإزالة الشبهة -قال ابن تيمية – في شرح العمدة : "وفي الحقيقة: فكل رد لخبر اللّه، أو أمره فهو كفر، دق أو جل، لكن قد يعفى عما خفيت فيه طرق العلم وكان أمرا يسيرا في الفروع، بخلاف ما عظم أمره وكان من دعائم الدين، من الأخبار والأوامر، يعني: فإنه لا يقال قد يعفى عنه"اهـ

٢-وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب – : "فإن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام والذي نشأ ببادية بعيدة، أو يكون ذلك في مسألة خفية فلا يكفر حتى يعرف ؛ وأما أصول الدين التي أوضحها اللّه وأحكمها في كتابه فإن حجة اللّه هو القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة، ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وبين فهم الحجة فإن أكثر الكفار والمنافقين من المسلمين لم يفهموا حجة اللّه مع قيامها عليهم ....

كما قال تعالى : ((أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)) وقيام الحجة نوع، وبلغوها نوع وقد قامت عليهم وفهمهم إياها نوع آخر وكفرهم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها. إن أشكل عليكم ذلك فانظروا قوله : صل الله عليه وسلم في الخوارج ((أينما لقيتموهم فاقتلوهم)) وقوله : ((شر قتلى تحت أديم السماء)) مع كونهم في عصر الصحابة..." .الدرر والرسائل

-أما استيفاء الشروط وانتفاء الموانع فهو التحقق من توفر الشروط الشرعية في المكلف ليكفر ويؤاخذ على فعله وقد يحدث هذا التحقق أثناء عملية اقامة الحجة وقد يحدث قبلها .

- ومن هذه الشروط :

١- أن يكون فاعل الكفر بالغًا

٢- أن يكون عاقلاً

٣- أن يكون مختارا للفعل غير مكره

ونلاحظ أن هذه الشروط والموانع سهلة بسيطة لا تحتاج لكبير جهد ووقت لاستيفائها وليست بالصعوبة التي يدعيها أهل الارجاء والتجهم ليلغوا بها أحكام الكفر والإيمان كما يتمنون.

-ونلاحظ أيضا أن التأويل والجهل لا يعدان من موانع تكفير من نقض أصل دينه بالشرك خاصة لأن التوحيد والاسلام له حقيقة واحدة يناقضها تماما الشرك بالله تعالى فإذا أشرك المكلف مع الله آلهة آخرى فقد انتفت حقيقة التوحيد عنه وثبت له حقيقة الشرك واسم الشرك سواء كان ما فعل جهلا منه أو تأولا والنصوص متضافرة على ذلك والإجماع قد انعقد على ذلك .

والحجة تشترط على المشرك لإنزال العقوبة عليه من قتل والجزم له بالخلود في النار من غير امتحان في العرصات وليس اقامة الحجة شرطا ليسمى مشركا بعد بلوغها إليه إذ هو مشرك بمجرد صرف عبادة لغير الله تعالى . وقد فندنا هذا بالتفصيل في رسالتنا " رسالة الي العاذر بالجهل "

الحُجّــة وصفة قيامها

صفة الحجة التي تنتفي معها حجج المشركين ، وينقطع بها العذر عنهم إنما هي كلام اللّه وكتابه المجيد " هذا القرآن " .. نعم هذا القرآن على وجه التحديد ، فمن بلغه القرآن بلغة يفهمها أو تمكن من الوصول إليه فقد بلغته الحجة وقامت عليه البينة بدين الحق .

والأدلة على ذلك كثيرة منها :

الدليل الأول : قال اللّه تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (الأنعام: ١٩) وقول (به) يعود فيه الضمير إلى القرآن فصح أن الإنذار وهو الحجة الملزمة إنما يكون بهذا القرآن وقول وَمَنْ بَلَغَ دليل آخر لتأكيد ثبوت الحجة على من بلغه القرآن.تقول العرب:بلغ الشيء وصل إليه.وبلغ فلان الماء وصل إليه سواء شرب منه أم لم يشرب،فبلغه القرآن أي وصله ، فهذا دليل واضح قاطع لا لبس فيه ولا غموض ، ونتحدى أن يثبت أحد خلافه ، وباللّه التوفيق .

الدليل الثاني : قال اللّه تعالى (المص . كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (الأعراف : ١-٢)
فصح بصريح لفظ القرآن أن الإنذار إنما يكون بمحض هذا القرآن لقوله تعالى لِتُنذِرَ بِهِ أي بالقرآن ، وهذا بيان جلي .

الدليل الثالث : قال اللّه تعالى (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) (التوبة: ٦)
وهذه الآية المباركة دليل قطعي على أن البينة التي ينقطع بها عذر المشركين عند المسلمين إنما هي كلام اللّه ، وهذا يثبت ما قدمنا ، من أن الصفة الشرعية المحدودة للحجة إنما هي (القرآن)...

قال ابن تيمية : " وقوله تعالى فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعا يتمكن معه من فهم معناه ، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى ، فلو كان غير عربي لوجب أن يترجم له ما تقوم به عليه الحجة ، ولو كان عربيا وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته، وجب أن نبين له معناها ، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه ، فعلينا ذلك. وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالاً يوردونه على القرآن. فإنه كان يجيبهم عنه."(الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ١/ ٦٨ – ٦٩)

الدليل الرابع : قال الله تعالى : (لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) [البينة :١-٣] . وهذا دليل قطعي محكم ومفصل في ذاته وهو بفضل الله من أوضح ما تكون الأدلة وأعظمها،فقد بين الله تعالى أن المشركين لا ينفكون من شركهم حتى تأتيهم البينة،وهي الحجة الرسالية ، ثم جاء الشرح والتفصيل والضبط والتحديد الرباني لصفة البينة بأنها: رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ فصح بيقين ما قدمنا ، من أن صفة الحجة الرسالية إنما هي كتاب الله المجيد .

الدليل الخامس : قال الله تعالى : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)[الزمر : ٧١].فصح بجلاء وبيان رباني أن الحجة الرسالية التي حدها الباري لعباده إنما هي القرآن يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ .

الدليل السادس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والقرآن حجة لك أو عليك ". (رواه مسلم).

الدليل السابع :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " (رواه أحمد ومسلم واللفظ لأحمد)

وكذلك فالثابت المتقرر في سيرة النبي وهديه مع المشركين أنه ما كان يصنع ما تزعمه بعض الطوائف اليوم من إقامة الحجة العينية على كل رجل من المشركين وعلى كل امرأة منهم ودفع ما عنده ، بذاته من شبه حتى يحكم عليه بالكفر بعد ذلك وقبلها يعذر ، وأما الصحيح الثابت أنه صلى الله عليه وسلم كان يبلغ كلام الله ويسمعه الناس ، ويحتج به عليهم كما فعل مع ابن ربيعة عندما جاء يساومه فتلا عليه القرآن ، وبه كان يجاهد الجهاد الكبير كما قال تعالى : فَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادا كَبِيراً (الفرقان:٥٢) أي بالقرآن وبه يفرق بين الحق والباطل ، فمن أقبل عليه أقبل ، ومن أعرض عليه أعرض (فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (النساء : ٨٠) ، ومن فهم الحق منهم فبتوفيق من الله ورحمة ، ومن ختم الله على قلبه ولم يفهم فبفسقه وما يعلمه الله في نفسه .

فهذه دلائل كلها قاطعة تدل على أن الحجة هي كتاب الله .

قال ابن القيم : " فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وبلوغ ذلك إليه ، وتمكنه من العلم به سواء علم أو جهل ، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة ، والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه ، قال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الإسراء: ١٥) وقال : كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(الملك :٨-٩) " (مدارج السالكين ج١ص٢١٧) انتهى

التفريق بين قيام الحجـــة وفهـــم الحجـــة

قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ*مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ*لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾

والدليل على أنهم لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾

فمن بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة في المسائل الظاهرة وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وفي الحديث وفي حديث عوف بن مالك مرفوعا (سأل رجل كيف يرفع العلم وقد ثبت في الكتاب ووعته القلوب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله)

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس ومحمد بن كعب وابن زيد وقتادة واختاره ابن كثير: (من بلغه هذا القرآن فهو له نذير)

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية (الأنعام، آية: ١٩.) فقال: (ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (يا أيها الناس بلغوا ولو آية من كتاب الله، فإنه من بلغه آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله، أخذه أو تركه).

وساق أيضا بسنده عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال: (من بلغه القرآن فكأنما أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم)، ثم قال: ﴿ومن بلغ أئنكم لتشهدون... الآية

وروى أيضا عن ابن عباس رضي اللّه عنه في هذه الآية: (﴿وأُوحِي إلي هذا القرآن لأنذركم به﴾؛ يعني أهل مكة، ﴿ومن بلغ﴾؛ يعني ومن بلغه هذا القرآن فهو له نذير).

وبسنده عن ابن زيد (قال: يقول: من بلغه هذا القرآن فأنا له نذير، وقرأ: ﴿يا أيها الناس إني رسول اللّه إليكم جميعا﴾، قال: فمن بلغه القرآن فرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نذيره) اهـ.

وقال ابن كثير (هذا القرآن بلاغ للناس لقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة: ﴿ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾، ﴿ولينذروا به﴾ أي ليتعظوا به، ﴿و ليعلموا أنما هو إله واحد﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الآيات والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وليذكر أولوا الألباب﴾ أي ذوي العقول...) اهـ.

قال الآلوسي . عند قوله تعالى ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ "عطف على ضمير المخاطبين أي لأنذركم به يا أهل مكة و سائر من بلغه القران ووصل إليه من الأسود و الأحمر أو من الثقلين أو لأنذركم به أيها الموجودون و من سيوجد إلى يوم القيامة ، قال ابن جرير من بلغه القران فكأنما رأى محمداً صلى اللّه عليه وسلم" اهـ

وقال الشيخ حمد بن ناصر آل معمر (وقد أجمع العلماء أن من بلغته دعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم أن حجة اللّه قائمة عليه، ومعلوم بالاضطرار من الدين أن اللّه بعث محمدا صلى اللّه عليه وسلم وأنزل عليه الكتاب ليعبد وحده ولا يشرك معه غيره ولا يدعي إلا هو...) اهـ. الدرر السنية: ١١/٧٢.

قال الشيخ عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب "الإجماع منعقد على أن من بلغته دعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم فلم يؤمن فهو كافر ولا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة" اهـ

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "مع أن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة اللّه مع قيامها عليهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية" اهـ

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدرر السنية في الأجوبة النجدية: ج١٠/ ص٩٤ – ٩٥)ردا علي من اشترط فهم الحجة لقيامها

(وأما أصول الدين، التي أوضحها اللّه وأحكمها في كتابه؛فإن حجة اللّه هو القرآن، فمن بلغه القرآن فقد بلغتهالحجة.)

ولكن أصل الإشكال؛أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة، وبين فهم الحجة.فإن أكثر الكفار والمنافقين من المسلمين؛لم يفهموا حجة اللّه مع قيامها عليهم، كما قال تعالى: "أَمْ تَحْسَبُ أَنَّأَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلّا كَالْأَنْعَامِ بَلْهُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً"

وقيام الحجة نوع، وبلوغها نوع، وقد قامت عليهم،وفهمهم إياها نوع آخر؛ وكفرهم ببلوغها إياهم، وإن لم يفهموها......

إن أشكل عليكم ذلك؛ فانظروا قوله صلى الله عليه وسلم في الخوارج: (أينما لقيتموهم فاقتلوهم)، وقوله: (شر قتلى تحت أديم السماء)، مع كونهم في عصر الصحابة، ويحقرالإنسان عمل الصحابة معهم، ومع إجماع الناس؛ أن الذي أخرجهم من الدين هو التشدد والغلو والاجتهاد؛ وهم يظنون أنهم يطيعون الله، وقد بلغتهم الحجة، ولكن لم يفهموها.

وكذلك قتل علي رضي الله عنه الذين اعتقدوا فيه، وتحريقهم بالنار،مع كونهم تلاميذ الصحابة، ومع عبادتهم وصلاتهم وصيامهم، وهم يظنون أنهم على حق.

وكذلك إجماع السلف؛ على تكفير غلاة القدرية وغيرهم، مع علمهم وشدة عبادتهم، وكونهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولم يتوقف أحد من السلف في تكفيرهم لأجل كونهم لم يفهموا.

فإن هؤلاء كلهم لم يفهموا.

إذا علمتم ذلك؛ فإن هذا الذي أنتم فيه كفر، الناس يعبدون الطواغيت، ويعادون دين الإسلام، فيزعمون أنه ليس ردة، لعلهم ما فهموا الحجة، كل هذا بين.

وأظهر مما تقدم؛ الذين حرقهم عليّ،فإنه يشابه هذا.

وأما إرسال كلام الشافعية وغيرهم؛ فلا يتصور يأتيكم أكثرمما أتاكم، فإن كان معكم بعض الإشكال، فارغبوا إلى الله تعالى أن يزيله عنكم.والسلام.
اهـ الدرر السنية في الأجوبة النجدية: ج١٠/ ص٩٤ – ٩٥)ردآ علي من اشترط فهم الحجة لقيامها

-قال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن (فتأمل كلام الشيخ - أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب - ونسأل اللّه أن يرزقك الفهم الصحيح، وأن يُعافيك من التعصب. وتأمل كلام الشيخ رحمه اللّه أن كل من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة وإن لم يفهم ذلك وجعلُه هذا هو السبب في غلط من غلط وأن جعل التعريف في المسائل الخفية، ومن حكينا عنه جعل التعريف في أصل الدين، وهل بعد القرآن والرسول تعريف؟ ثم يقول هذا اعتقادنا نحن ومشايخنا، نعوذ باللّه من الحور بعد الكور. وهذه المسألة كثيرة جداً في مصنفات الشيخ رحمه اللّه، لأن علماء زمانه من المشركين ينازعون في تكفير المُعين، فهذا شرح حديث عمرو بن عبسة من أوله إلى آخِره كله في تكفير المُعين، حتى أنه نقل فيه عن شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه اللّه أن من دعا عليا فقد كفر، ومن لم يُكفره فقد كفر، وتدبر ماذا أودعه من الدلائل الشرعية التي إذا تدبرها العاقل المنصف فضلاً عن المؤمن عرف أن المسألة وِفاقية ولا تُشكل إلاّ على مدخول عليه في اعتقاده) .عقيدة الموحدين، رسالة : (حكم تكفير المعين والفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة) ص ١٧٨.

- وقال (ومسألتنا هذه وهي: عبادة اللّه وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، وأن من عبد مع اللّه غيره فقد أشرك الشرك الأكبر الذي ينقل عن الملّة هي أصل الأصول، وبها أرسل اللّه الرسل وأنزل الكتب، وقامت على الناس الحُجة بالرسول والقرآن، وهكذا تجد الجواب من أئمة الدين في ذلك الأصل عند تكفير من أشرك باللّه، فإنه يستتاب فإن تاب وإلاّ قُتل، لا يذكرون التعريف في مسائل الأصول، إنما يذكرون التعريف في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض المسلمين، كمسائل نازع بها بعض أهل البدع كالقدرية والمرجئة، أو في مسألة خفية ، وكيف يُعرِّفون عُباد القبور وهم ليسوا بمسلمين ولا يدخلون في مسمى الإسلام، وهل يبقى مع الشرك عمل واللّه تعالى يقول: ﴿ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سَمّ الخياط﴾ إلى غير ذلك من الآيات، ولكن هذا المعتقد يلزم منه معتقد قبيح، وهو أن الحُجة لم تقم على هذه الأمّة بالرسول والقرآن، نعوذ باللّه من سوء الفهم الذي أوجب لهم نسيان الكتاب والرسول) .اهـ

وقال الشيخ سليمان بن سحمان (قال شيخنا الشيخ عبد اللطيف رحمه الله: وينبغي أن يُعلم الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن من بلغته دعوة الرسل فقد قامت عليه الحجة، ولا يُشترط في قيام الحجة أن يفهم عن الله ورسوله ما يفهمه أهل الإيمان والقبول والانقياد لما جاء به الرسول، فأفهم هذا يكشف عنك شبهات كثيرة في مسألة قيام الحجة، قال الله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ [الفرقان/٤٤]، وقال تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة ولهم عذابٌ عظيم﴾ [البقرة/٧]، انتهى.

-وقال عبد الله وإبراهيم أبناء الشيخ عبد اللطيف وسليمان بن سحمان: (وأما قوله: - أي أحد المجادلين عن المشركين - وهؤلاء ما فهموا الحجة؛ فهذا مما يدل على جهله، وأنه لم يُفرق بين فهم الحجة، وبلوغ الحجة، ففهمها نوع وبلوغها نوع آخر، فقد تقوم الحجة على من لم يفهمها) .الدرر السنية ١٠/٤٣٣.

ويقول ابن القيم في قوله تعالى ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كُنا في أصحاب الجحيم﴾: (فهذا السمع المنفيّ عنهم سمع الفهم والفقه، وقوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي لأفهمهم، والسمع هنا سمع فهم، وإلاّ فسمع الصوت حاصل لهم، وبه قامت حجة الله عليهم) .مفتاح دار السعادة ١/٨١ _ ١٠٥.

-يقول الشيخ عبد الله بن أبى بطين في رسالة بعنوان حكم تكفير المعين

فمن بلغته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة فلايعذر بعدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فلا عذر له بعد ذلك بالجهل، وقد أخبر الله سبحانه بجهل كثير من الكفار مع تصريحه بكفرهم ووصف النصارى بالجهل،مع أنه لا يشك مسلم في كفرهم،

ونقطع أن أكثر اليهود والنصارى اليوم جهال مقلدون، ونعتقد كفرهم وكفر من شك في كفرهم.

وقد دل القرآن على أن الشك في أصول الدين كفر، والشك؛ هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بصدق الرسول ولا كذبه،ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه ونحو ذلك، كالذي لا يعتقد وجوب الصلاة ولا عدم وجوبها، أو لا يعتقد تحريم الزنا أو عدم تحريمه، وهذا كفر بإجماع العلماء.

ولا عذر لمن كان حاله هكذا بكونه لم يفهم حجج اللّٰه وبيناته لأنه لاعذر له بعد بلوغها له وإن لم يفهمها، وقد أخبر اللّٰه عن الكفار إنهم لم يفهموا فقال"وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا"، وقال: "انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون اللّٰه ويحسبون أنهم مهتدون"

فبين سبحانه أنهم لم يفقهوا، فلم يعذرهم لكونهم لم يفهموا، بل صرح القرآن بكفر هذا الجنس من الكفار، كما في قوله تعالى: "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهـم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ❖ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلانقيم لهم يوم القيامة وزنا"

فمن بلغه القرآن الكريم أو تمكن من الوصول إلى القرآن فقد بلغته الحجة الرسالية في التوحيد والشرك بلاغا مبينا مفصلاً لا يحتاج من أراد الحق إلى غيره.فقد قال اللّٰه تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف: ٥٢) وقال أيضا : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (القمر: ١٧)

قال ابن تيمية: "إن القرآن حجة على من بلغه ... فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم" اهـ

وقال أيضا: على قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ "والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر لا بنفس الاستماع ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره" الفتاوى ١٦/ ١

وقال أيضا: "حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم فليس من شرط حجة الله علم المدعوين بها ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانع من قيام حجة الله عليهم" كتاب الرد على المنطقيين، مجموع الفتاوى: ١/١١٢ – ١١٣

وقال أيضا: "ليس من شرط تبليغ الرسالة أن يصل إلى كل مكلف في العالم بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه" اهـ الفتاوى ٢٨/ ١٢٥

وقال (أن القرآن حجة على من بلغه: فإن محمد صلى الله عليه وسلم قد عُرِفَ بالاضطرار من دينه أنه مبعوث إلى جميع الإنس والجن، والله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقلين، كما قال تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره الرسول صلى الله عليه وسلم، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، والمخوف هو العذاب ينزل بمن عصى أمره ونهيه) مجموع الفتاوى: ١٦/١٤٨ – ١٤٩.

وقال عند قوله تعالى: ﴿سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى﴾: (والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى وهو التذكر، فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر، وإلا فبمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد، لكن قد يراد بتجنبها؛ أنه لم يستمع إليها ولم يصغ، كما في قوله: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾، والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر، لا بنفس الاستماع، ففي الكفار من تجنب سماع القرآن، واختار غيره، كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل الكتاب وغيرهم، وإنما ينتفعون إذا ذكروا فتذكروا، كما قال: ﴿سيذكر من يخشى﴾) مجموع الفتاوى: ١٦/١٦٦.

قال ابن القيم في مدارج السالكين: (فَإِنّ حُجّةَ اللّهِ قَامَتْ عَلَى الْعَبْدِ بِإِرْسَالِ الرّسُولِ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَبُلُوغِ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَتَمَكّنِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ، سَوَاءٌ عَلِمَ أَمْ جَهِلَ، فَكُلُّ مَنْ تَمَكّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ، فَقَصّرَ عَنْهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ).اهـ

وقال في هداية الحيارى: (فَالْحُجّةُ إِنّمَا قَامَتْ عَلَى الْخَلْقِ بِالرّسُلِ، وَبِهِمُ انْقَطَعَتِ الْمَعْذِرَةُ، فَلَا يُمْكِنُ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ يَعْتَذِرَ إِلَى اللّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ لَيْسَ لَهُ عُذْرٌ يُقْبَلُ مِنْهُ).اهـ

وقال في مدارج السالكين: (فَإِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ أَرْحَمُ وَأَغْنَى وَأَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَ صَاحِبَ عُذْرٍ، فَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، إِزَالَةً لِأَعْذَارِ خَلْقِهِ، لِئَلّا يَكُونَ لَهُمْ عَلَيْهِ حُجّةٌ.
وَمَعْلُومٌ أَنّ طَالِبَ عُذْرِهِمْ وَمُصَحّحَهُ مُقِيمٌ لِحُجّةٍ قَدْ أَبْطَلَهَا اللّهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَلِلّهِ الْحُجّةُ الْبَالِغَةُ)اهـ

قال ابن حزم بعد ذكره لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: (لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني...)، فقال: (قال أبو محمد: فإنما أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به على من سمع بأمره، فكل من كان في أقاصي الجنوب والشمال والمشرق وجزائر البحور والمغرب وأغفال الأرض من أهل الشرك، فسمع بذكره صلى الله عليه وسلم؛ ففرض عليه البحث عن حاله وإعلامه والإيمان به...).

إلى أن قال: (... وأما من بلغه ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، ثم لا يجد في بلاده من يخبره عنه، ففرض عليه الخروج عنها إلى بلاد يستبرىء فيها الحقائق، ولولا إخباره صلى الله عليه وسلم أنه لا نبي بعده، للزمنا ذلك في كل من نسمع عنه أنه ادعى النبوة، ولكننا قد أمنا ذلك، والحمد لله) اهـ. الإحكام في أصول الأحكام: ٢/١١٢، ط العلمية.

فتأمل يا من منّ اللّه عليه بالفهم الصحيح قول أبي محمد الأخير: (للزمنا كل من نسمع عنه)، فإنه يجلو عنك شبها كثيرة، خصوصا في مسألة قيام الحجة، ﴿ومن يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئا﴾.

وكذلك ما نقله الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ أنه لا خلاف في كفر من بلغته الرسالة ولم يؤمن بها وإن التبست عليه، قال: (وإذا بلغ النصراني ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم ولم ينقد له، لظنه أنه رسول الأميين فقط؛ فهو كافر، وإن لم يتبين له الصواب في نفس الأمر، كذلك كل من بلغته دعوة الرسل بلوغا يعرف فيه المراد والمقصود، فرد ذلك لشبهة أو نحوها؛ فهو كافر وإن التبس عليه الأمر، وهذا لا اختلاف فيه) اهـ.مصباح الظلام

بل نجزم أن أكثر اليهود والنصارى اليوم مقلدون لأحبارهم ورهبانهم، ولا يسمعون عن النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا بصورة مشوهة وملتبسة ويجهلون الحق ، بل أحسنهم حالا من يجعله رسول الأميين خاصة، فهل هؤلاء لهم عذر فالقائل بالعذر يلزمه هذا، ولا محيد له عن ذلك، وقد تقدم كلام ابن حزم؛ على أن من كان هذا حاله فقد قامت عليه الحجة ووجب عليه البحث والطلب، فاتفقت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وإجماع الأمة المحمدية على ذلك، فأين المفر وأين المهرب؟! ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

....

د.ماجد كارم